الدكتور: رابح محوي

المستوى: ثانية ماستر أدب عربي قديم

المادة: أدب جزائري قديم

المصدر: الجزائر في التاريخ، العهد الاسلامي، من الفتح الاسلامي إلى بداية العهد العثماني رشيد بورويبة، موسى لقبال، عبد الحميد حاجيات، عطاء الله دهيبة، محمد بلغراد.

الأهداف:_ تسعى هذه المحاضرات لإحاطة الطالب بتاريخ الجزائر الثقافي والسياسي والأدبي

_ معرفة شعراء وأدباء العصور الأدبية التي مرت بها الجزائر

_ تمكين الطالب من معرفة المدونات المختلفة المحققة والضائعة والمخطوطات

_ تحفيز الطالب على دراسة المدونات الجزائرية القديمة وفق المناهج الحديثة في مذكراتهم المستقبلية.

المحاضرة الأولى: الفتح الإسلامي

1- مشكل المصادر:

يسود فترة الفتح الإسلامي للمغرب غموض كثير، يرجع إلى أسباب عديدة. و أغلبها يدورحول نوعية المصادر المتوفرة لدينا وطريقة عرض الحوادث. ثم أن تدوين التاريخ، وغيره العلوم، بدأ بعد هذه الفترة بحوالي قرن، مما جعل جامعي الأخبار التاريخية، في القرن الثاني والثالث للهجرة، يعتمدون على روايات شفاهية. ولا شك أن الرواية الشفاهية معرضة المبالغة في التقدير، ولوضع الأخبار لأغراض مذهبية، الأمر الذي سبب تضخم الحديث خصوصا، وقد أدى ذلك إلى قيام حركة نقد الحديث، ابتداء من القرن الثالث الهجري

والجدير بالملاحظة أن التاريخ، في بداية تدوينه، كان يندرج ضمن الحديث، يشكل بابا من كتب الحديث يدعى باب المغازي والسير. ولذا فليس من الغريب أن يصيب التاريخ ما أصاب الحديث عامة من وضع وتضخم .

أضف إلى ذلك أن نظرية الناس للتاريخ في فترة نشأة هذا العلم، لم تكن علمية بأتم معنى الكلمة وذلك أن الناس كانوا يولعون بالأخبار العجيبة، التي تثير انتباههم وتسليهم، وتتجاوب مع عواطفهم وميولهم، ولا يتحرجون من خلط التاريخ بالقصص، ومن المبالغة والاعتراف في تقدير أعداد الجنود والأسرى والقتلى وغير ذلك .

نتج عن كل ذلك أن ما روي من الأخبار حول الفتوح يحمل طابعا أسطوريا ينبغي التفطن إلى ما فيه من غلو ومبالغة، واستبعاد كل ما وضع لأغراض مذهبية أو سياسية

2- المرحلة الاستطلاعية:

لم يمر أكثر من عشر سنوات على وفاة الرسول صلى الله عليه و سلم حتى فتح المسلمون بلاد الشام و العراق و مصر ورقة، وأصبحت الدولة العربية الإسلامية الفنية من أعظم دول العالم آنذاك.

ولم يجد المسلمون أمامهم عدوا أخطر من الإمبراطورية البيزنطية، التي كانت لا تزال تسيطر على مناطق واسعة من حوض البحر الأبيض المتوسط، من بينها بلاد اسبانيا والمغرب وصقلية وآسيا الصغرى واليونان وغيرها.

وكانت الفتوح الكبرى، التي حققها المسلمون في خلافتي أبي بكر وعمر، تتطلب الالتفات إلى تنظيم شؤون البلاد المفتوحة، وحل المشاكل الناجمة عن الوضع الجديد. فكان من الطبيعي أن يدخل نشاط الفتوح في مرحلة جديدة، تتمثل في الانتقال من عملية التوسع إلى عملية تدعيم

السلطة الإسلامية وإرسائها على أسس قوية، واستيعاب حضارات الشعوب المفتوحة، ونشر الإسلام بينها.

وعندئذ اقتصر نشاط المسلمين في مجال الفتوحات، على إرسال غارات استطلاعية في اتجاه الناحية الجنوبية من بلاد افريقية، قصد التعرف على تلك المناطق وعلى سكانها، والإطلاع على قوة الروم فيها.

أ- عبد الله بن سعد:

فكانت أولى هذه الغارات، سنة 27هـ/ 647م، تحت قيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، أخي الخليفة عثمان بن عفان من الرضاعة،فتصدى لها جيش للروم يقوده البطريق جرجير، وكان اللقاء بين الجيشين قرب سبيطلة، فانتصر المسلمون في هذه المعركة وأصابوا كثيرا من الغنائم، ثم عادوا إلى مراكزهم بمصر، وقد اتضح لهم أن غزو بلاد افريقية أمر هين، لضعف جيش الروم بها، نتيجة الأزمات السياسية والمذهبية المستمرة . كما اتضح أن الروم كانوا يعتمدون في مواجهة الجيش الإسلامي على عناصر أجنبية من المرتزقة، و أن البربر لم يساهموا مساهمة فعالة في ذلك.

ب- معاوية بن حديج:

وفي أواخر خلافة عثمان، نظمت عملية أخرى بقيادة معاوية بن حديج الذي غزا افريقية سنة 655/34م.

ثم كانت الفتنة الكبرى، بعد مقتل عثمان ونشبت الحرب بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، فركدت حركة الفتوحات، إلى أن تمت البيعة لمعاوية بن أبي سفيان.

وعندئذ استؤنف نشاط الفتح، وغزا معاوية بن حديج افريقية سنة 41هـ/ 662م. ثم قاد غزاة ثالثة، سنة 54هـ/665م، انتهت بفتح مدينة جلولا.

ثم عين معاوية بن حديج واليا على مصر، واسندت قيادة الجند في جنوب افريقية إلى عقبة بن نافع ، وهو ابن خالة عمرو بن العاص.

ج- عقبة بن نافع:

واصل عقبة بن نافع نفس النشاط بنفس الأسلوب، وأهم عمل قام به هو تأسيس مدينة القيروان، حوالي سنة 50هـ/ 670م. وكان من شأن هذا الإنجاز المعماري أن يدعم بالفتح يزيدها فعالية، وأن يسمح للجند بالاستقرار في قاعدة عسكرية تنطلق منها العمليات.

والجدير بالملاحظة أن دولة بنى أمية كانت، في تلك الأثناء، تخوض حربا كبرى في جهة أخرى من جهات القتال. وذلك أن الجيش الإسلامي كان يضرب، آنذاك الحصار على القسطنطينية عاصمة البيزنطيين (50-51هـ/670-671 م) . و يبدو أن معظم الجهود كانت موجهة لتدعيم ذلك الحصار، وأن معاوية بن أبي سفيان لم يتمكن من إرسال بعثة هامة إلى افريقية لمساعدة حركة الفتح بها.

توفي سنة 51هـ/ 671م، عزل معاوية حديج من ولاية مصر، وعوض بمسلمة عزل عقبة بن نافع وعوض بأبي المهاجر دينار. وقد يكون لذلك علاقة بفشل بحصار القسطنطينية وما تلاه من عقد هدنة بين المسلمين و الروم، الأمر الذي اقتضى تعيين قادة جدد لتطبيق سياسة جديدة.

د- أبو الهاجر دينار:

كانت السياسة المنتهجة في افريقية، قبل ذلك، من طرف القادة العرب، سياسة الشدة تجاه الروم والبربر، على السواء. ولم يكن عقبة أقلهم حماسا وإقبالا على الغزو. بعد أن فشل حصار القسطنطينية وإحراق عدد كبير من قطع أسطول بني أمية أضعف شأن .المسلمين في البحر، وجعل الروم يعودون إلى الهجوم في مناطق عديدة. فأصبح معاوية يميل إلى سياسة اللين

والمدارة، في معاملته للروم. ويبدو إذن أن تعيين أبي المهاجر يقع في إطار هذا الاتجاه الجديد في العلاقات مع الروم.

والأرجح أن المسلمين التزموا احترام الهدنة مع الروم في آخر عهد معاوية، ثم بعد ذلك إلى عهد يزيد ومروان بن الحكم وقسم من عهد عبد الملك بن مروان . فلم يهاجمون.

وعلى كل، فإن سياسة أبي المهاجر انتهجت لأول مرة أسلوب المسالمة والتحالف تجاه البربر وخصوصا بربر افريقية، الذين كانوا قد تأثروا منذ قرون عديدة بما جاء به مختلف الغزاة الأجانب من تأثيرات في مجال اللغة والديانات والاقتصاد وغير ذلك، وكانت تربط بينهم وبين الثلاث وثيقة تختلف حسب الظروف، من علاقات سلمية إلى حروب دامية. ولا شك أن الروم، في تلك الأثناء، كانوا، بعدما أصيبوا من هزائم خلال حركة الفتح الإسلامي، يحاولون التقرب من أولئك البربر وتحريضهم على محاربة المسلمين، ويعدونهم بالرجال والأسلحة والمال.

والظاهر أن معظم قبائل البربر لم تنخدع لهذه الإغراءات والوعود، وأنها لم تنس ما تعرضت له من اضطهاد وتعسف في فترات عديدة من تاريخها. فلم تقاوم الفتح الإسلامي، ولم تتحالف مع الروم لشن الحرب ضد المسلمين إلا في ظروف خاصة ونادرة.

وكان على المسلمين أن يبذلوا كل جهودهم لاستمالة البربر إلى جانبهم، وذلك بأن يضمنوا المساواة في الحقوق والواجبات لمن اعتنق الإسلام، والحماية لمن بقي على دين النصرانية و اليهودية، والعدل للجميع، حتى يتضح للجميع أن الفتح الإسلامي ليس مجرد غزو لاستبعاد الشعوب وسلب خيراتها، وإنما هو تحرير لها ومساعدتها على استرجاع كرامتها.

وقد أدرك أبو المهاجر ضرورة انتهاج هذه السياسة لتجنب كثير من المتاعب والشدائد، فسلك هذا المسلك، وعامل البربر معاملة حسنة، فاستمال بعضهم، من بينهم كسيلة، رئيس قبيلة أورية، من البرانس، الذي اعتنق الإسلام، ومنح أبا المهاجر ثقته وصداقته.

وقد ذكرت معظم المصادر أن الفتح الإسلامي تقدم تقدما كبيرا على يد أبي المهاجر وأن هذا الأخير وصل بجيشه إلى ناحية تلمسان. وقد سبقت الإشارة إلى ما في أخبار هذه الفترة من المبالغة وإسراف وهذا الخبر من جملة ما يستبعد صحته، لأن مثل هذه العملية تتطلب إخضاع عدد كبير من القبائل أو اعتناقها للإسلام، ولم ترد تفاصيل ، في كتب التاريخ، تثبت حصول ذلك فعلا ويبدو أن منطقة نفوذ المسلمين في آخر ولاية أبي المهاجر لم تتجاوز ناحية أوراس.

هذا ولم يهدأ لعقبة بال حتى أقنع يزيد بن معاوية بإعادته إلى افريقية وعزل أبي المهاجر وذلك في سنة 62هـ/ 681م.

هـ- عقبة بن نافع (ثانيا):

فعاد عقبة إلى افريقية، وهو أشد ما يكون حنقا على أبي المهاجر، وعزما على الانتقام منه. وكان عقبة شديد الرغبة في منصب قيادة الجند، فلما عزل وعوض بأبي المهاجر، وهو من الموالي، اعتبر ذلك مذلة له، بعدما حققه من انجازات وبذل من مجهودات.

وسرعان ما أمر بتثقيف أبي المهاجر وكسيلة بالحديد، وإبقاهما في القيود يصحبهما معه أينما انتقل، كما أنه لم يرتض السياسة التي سلكها أبو المهاجر تجاه البربر، وعاد إلى عمليات الغزو، وإلى أخذ البربر بالشدة والعنف، ونبذ كل ما أقامه أبو المهاجر معهم من علاقات طيبة، مرتكزة على أساس الاحترام المتبادل، والمساواة بين سائر المسلمين في الحقوق والواجبات.

قام عقبة بحركته الشهيرة، قاصدا فتح المناطق الجنوبية من بلاد المغرب، غير مكترث بقلة جنوده وكثرة البربر، أهل تلك المناطق، وغير آبه بخطر محاولات الروم المنتظرة لإثارة عداء البربر للعرب، وإشعال نار الحرب بين العنصرين.

هذا وقد تحدث المؤرخون والقصاص عن هذه الحركة الكبرى، فذكروا تفاصيل عديدة وتفننوا في تزيينها بالأخبار العجيبة والحكايات البطولية، التي تدعو إلى دراسة جدية تؤدي إلى التفرقة بين ما هو تاريخي من الأخبار، وما هو أدبي وأسطوري، لا قيمة له من ناحية التاريخ و لا يعتد به في هذا المجال.

تشير معظم المصادر إلى أن عقبة بدأ حركته بفتح بعض مناطق افريقية، فأذل الروم إلى باغايا والمنستير غيرهما من المدن والحصون، ثم توجه إلى المغرب الأوسط، ففتح تاهرت ثم توغل في بلاد المغرب الأقصى، فاستولى على طنجة وفتح بلاد السوس الأدنى، بعد أن دوخ مختلف أقطار المغرب، وقاتل من تعرض له من الأهالي وأباد كثيرا عليهم.

وقد أجمع الباحثون على الاعتقاد أن هذه الروايات مبالغ فيها، وأن عقبة لم يجل في هذه المناطق، فشك الكثير منهم ، اعتماد على رواية ابن عبد الحكم، في وصول عقبة في منطقة طنجة، وكذلك السوس الأقصى، بل ذهب البعض إلى أنه من الصعب الجزم حركة عقبة إلى ما وراء حدود المغرب الأوسط. وعلى كل، فالذي لا مجال للشك هو أن عقبة غزا بعض المناطق في الأوراس، والحضنة والزاب، وأنه عند عودته من حركته هذه مر بناحية بسكرة، حيث اصطدام بجموع من البربر والروم، فلقيهم بشجاعة ورغم قمة من معد من الجند وكثرة المهاجمين له وقتل بموضع يدعى تاهودة، مع كل من كان معه من الجنود (64هـ/683م).

يروى أن كسيلة كان قد فرّ من أسره قبل المعركة، وحشد الجموع من قومه، واستعان بالروم وقاد العملية التي أسفرت عن استشهاد عقبة و رفاقه.

وقد ترتب عن هذه الكارثة نتائج خطيرة، حيث أن كسيلة استولى على القيروان،وامتد نفوذه إلى كل المناطق التي فتحها العرب قبل ذلك بافريقية، وأصبح يترأس دولة محالفة تقوم مقام حاجز بين هؤلاء وبين المسلمين. كما أن الجند الإسلامي تقهقر إلى حدود ، حيث أخذ يجمع قواه من جديد و ينتظر المدد من دمشق.

هكذا، كانت سياسة عقبة، المرتكزة على نظرية إخضاع الأهالي بالقوة والعنف، سياسة فاشلة، أدت إلى ضياع كل ما اكتسبه الفتح الإسلامي منذ ما يقرب من أربعين ، كما أنها كانت تجربة قاسية، أفادت الحكام الأمويين بضرورة تغيير أسلوبهم في الفتح والعودة إلى طريقة أكثر لينا ومرونة.

و- زهير بن قيس البلويّ:

لما حدثت كارثة تهودة، كان يزيد بن معاوية مشغولا بإخماد ثورة الحجاز، التي قامت عقب مقتل الحسين بكر بلاء (61هـ/ 680م)، وتوفي وجيشه لا يزال يحاصر مكة المكرمة (64هـ/ 683م). ثم كانت الفتنة الصغرى، وثورة عبد الله بن الزبير، فانشغل مروان بن الحكم بالعمل على مواجهة خطرها، واسترجاع المناطق المؤيدة لابن الزبير، وبدأ بمصر لأهمية موقعها في إستراتيجية الصراع بين الخلافة الأموية والإمبراطورية البيزنطية، و كذلك في الصراع الداخلي بين الأمويين و الزبيريين و حاول والي مصر الجديد، عبد العزيز بن مروان، أن يعالج مشاكل افريقية بما توفر لديه من إمكانيات، فأمر زهير بن قيس بضبط الأمور في برقة وأمتد بما أمكن من الرجال والعتاد للتوجه إلى افريقية.

ثم زحف زهير بن قيس، بما اجتمع لديه من جنود، إلى افريقية، فلقي كسيلة و قومه بقرية ممس، قرب القيروان، فقتل كسيلة أثناء المعركة ، و انهزم أتباعه (67هـ/ 686م)

والظاهر أن زهير بن قيس لم يكن لديه قوات كافية للتصدي لما كان يتوقع حدوثه من هجمات الروم وأحلافهم من الأفارقة والبربر، فرأى من الحكمة، بعد أن حقق الإنتقام لمقتل عقبة ورفاقه، أن يغادر القيروان ويعود إلى برقة أو مصر. وكانت ثورة عبد الله بن الزبير، آنذاك لا تزال قائمة بالحجاز والعراق، فكانت الأوضاع تقتضي التعجيل بالتصدي لها، وإرجاء شؤون افريقية إلى أجل لاحق .

وكان خطر الروم لا يزال مخيما على ما بقي تحت سلطة المسلمين من بلاد المغرب. ففي تلك الأثناء قدم أسطول بيزنطي من صقلية، وشن غارة بحرية على برقة. فنهب الروم وسبوا.

وحملوا الغنائم و السبي إلى مراكبهم. ويبدو أن خبر هذه الغارة وصل إلى زهير بن قيس وهو على أهبة العودة إلى المشرق، فسلك طريق البحر آملا في إدراك سبي المسلمين، ولحق بالروم قرب دونة، ومعه حوالي سبعين فارسا، فلم يراع كثرة الأعداء، و دفعه حماسه إلى مهاجمتهم، فقتل وكل من كان معه.

وهكذا يتضح أن البيزنطيين كانوا على علم بصعوبة موقف الأمويين بعد وفاة يزيد واغتنموا الفرصة، فأخذوا يغيرون على سواحل مصر وبرقة وغيرها من البلاد التي فتحها المسلمون، قصد استرجاع ما أمكن من ممتلكاتهم السابقة. وقد رأينا أنهم لعبوا دورا حاسما في حوادث افريقية، وقدموا للبربر المساعدة الفعالة في حادثة تهودة، ثم عملوا على حماية افريقية بمهاجمة برقة وصد المسلمين عنها راجين تثبيط عزائم هؤلاء وإبعادهم نهائيا عن المغرب.

ولم يتمكن بنو أمية، آنذاك، من التصدي لهذا العداء،لانشغالهم بثورة ابن الزبير فراكنوا إلى مهادنة البيزنطيين ومسالمتهم. ولم يتحقق ذلك إلا سنة 73هـ/ 692م، حيث قتل عبد الله بن الزبير بمكة، وانتهت حركته.

وعندئذ، قرر عبد الملك بن مروان التفرغ لشؤون افريقية، والعمل على فتحها وطرد منها، فعين حسان بن النعمان الغسانّي قائدا على الجند الإسلامي الذي عزم على إرساله إليها

3- فتح المغرب:

تمتاز المرحلة الاستطلاعية، التي سبق عرضها، بكون نشاط المسلمين فيها عبارة عن عمليات محدودة،سواء من حيث الزمان، أو من حيث المكان، وكذلك فيما يخص أعداد الجنود

المشاركة في كل منها. وكل ما ورد في شأن ذلك مما يوهم مزيدا من الأهمية في هذه الحالات المبالغ فيه و ينبغي إعادة النظر في تقديره.

وذلك أن الغرض من تلك العمليات لم يكن، خلال هذه الفترة كلها، تنظيم حركة قائمة تستهدف فتح بلاد افريقية كلها أو المغرب بأسره. و إنما كان ينحصر في إرسال سرايا استكشافية يعهد إليها بالتسرب في المناطق المجاورة للحدود، ومحاولة التمركز فيها لتوسيع رقعة البلاد الإسلامية، و الدليل على ذلك أن الجيوش الإسلامية لم تستغل انتصاراتها في سبيطلة وغيرهما، بمواصلة الزحف و طرد الروم من افريقية، ولم توجه نشاطا مكثفا ضد الروم أيام ولاية أبي المهاجر و عقبة وزهير بن قيس، لما سبق شرحه من خلال دراسة الأوضاع السياسية العامة للعالم الإسلامي، و تطور صراعه مع الإمبراطورية البيزنطية.

فكان نشاط المسلمين في هذه الفترة كلها عبارة عن حركة مد وجزر، لم تتجاوز بلاد الأوراس والزاب غربا، ولم تتوغل في المناطق الشمالية بافريقية. وكل ما أورده المؤرخون القدماء بين امتداد إلى قرطاجة شمالا أو إلى المغرب الأقصى غربا لا يمكن الأخذ به، لما يترتب عن من تناقضات و غموض في عرض تاريخ المغرب، ولما تكتسيه تلك الروايات تلك من طابع قصصي و أسطوري يتنافى مع المنهجية العلمية في معالجة التاريخ.

ويتضح أيضا، مما سبق ذكره أن المسلمين واجهوا، أثناء الفترة الاستطلاعية هذه، مقدمة من طرف الروم والأفارقة وحلفائهم من البربر زادت عنفا كلما قويت الفتن الداخلية في الدولة الإسلامية، فلم يتمكن المسلمون من القضاء على تلك المقاومة لضعف إمكانياتهم، جنودهم. وبعد مراكز تموينهم في مصر أو برقة، و لترددهم في إنتهاج سياسة واضحة المعالم البربر.

هذا وتذكر بعض الروايات أن عناصر من البتر قد اعتنقت الإسلام، وانضمت إلى الجيش الإسلامي، و خصوصا أثناء حركة زهير بن قيس إلى افريقية، مما يسمح بالتفكير في وجود

صراع قديم بين البتر والبرانس واستعداد أحد العنصرين على مساعدة المسلمين لمواجهة العنصر الآخر.

وعلى كل، فيبدو أن أنجع سياسة في فتح المغرب كانت تقتضي القضاء على مقاومة الروم وحلفائهم، واستمالة معظم الأهالي من البربر إلى الإسلام، بانتهاج سياسة مرنة تجاههم. وهذه السياسة هي التي سلكها أبو المهاجر، قبل ذلك ، وسيسلكها حسان بن النعمان، فيما بعد.

أ- حسان بن النعمان:

لقد عني عبد الملك بن مروان بشؤون افريقية، فعين قائدا ماهرا من أهل الشام هو حسان بن النعمان الغساني، وأرسله على رأس جيش وافر العدد، وطلب من أخيه عبد العزيز بن مروان، والي مصر، أن يزوده بكل ما يحتاج إليه من عتاد و مؤن ومال.

فقدم حسان إلى افريقية سنة 73هـ/692م، ونزل طرابلس حيث اجتمع إليه كل من غادر بلاد افريقية من المسلمين ومن انضم إليهم من البربر. وواصل سيره نحو الشمال ، فاسترجع المناطق التي فتحها المسلمون من قبل. ثم توجه نحو قرطاجة، فحاول الروم أن يصدوه عنها، و لكنهم فشلوا في محاولتهم، و اضطروا إلى تسليم المدينة صلحا (سنة 75هـ/ 694م) . ثم أرسل حسان السرايا لفتح الحصون والمدن الواقعة على الساحل، وتابع إخضاع مناطق افريقية التي كان يوجد فيها الروم والأفارقة و البرانس.

وبعد أن أخضع الكثير من نواحي افريقية، واصل سيرة في اتجاه منطقة أوراس، وكان اندحار كسيلة وجماعته من البرانس، أثناء حركة زهير بن القيس ، قد فسح المجال لقبيلة من البتر، تدعى جراوة، فبسطت نفوذها في المنطقة تحت قيادة امرأة تعرف باسم الكاهنة.

إننا نجهل الكثير عن الكاهنة، وقد ذكر العض أنها كانت على الديانة اليهودية، غير أن ما روي من أن أحد ابنيها كان من أب نصراني يرجح الاعتقاد أنها كانت نصرانية، مع تعلقها برواصب الديانات المحلية القديمة المتمثلة في أعمال السحر والتكهن.

وعلى كل، فإن ذلك يشهد على وجود علاقات وثيقة بين قوم الكاهنة و بعض العناصر التي قاومت الفتح الإسلامي، من افرنجة وأفارقة.

ربما كان عجز الروم عن صد المسلمين، قد أدى بهذه العناصر إلى تعليق آمالهم على الكاهنة و قومها، و تحريضها على الوقوف في وجه المسلمين و التصدي لهم، مثلما أدى بهم فشل الروم إلى تحريض كسيلة ومساعدته، ولى الاستنجاد بروم القسطنطينية وصقلية.

بها علمت الكاهنة بتوجه جيش حسان إلى منطقتها، لم تنتظر قدومه، بل بادرت باقتحام مدينة باغايا، وطردت أهلها من الروم ومن لم تثق بهم من الأفارقة و خربت المدينة لئلا يعتصم بها حسان.

ثم واصلت طريقها تجاه الشرق، ولما قربت من وادي مسكيانة التقى جيشها بجيش حسان لو كان البقاء شديدا، فانهزم المسلمون، وتراجع حسان ومن معه إلى ما وراء طرابلس من بلاد برقة.

وكان البيزنطيون قد تأثروا كثيرا بسقوط قرطاجة بين أيدي المسلمين فأرسلوا في تلك الأداء، أسطولا قويا تحت رئاسة البطريق يوحنا، فلم يلاق أية صعوبة في استرجاع المدينة إذ أن حسان كان قد تراجع بجيشه إلى برقة بعد هزيمته على وادي مسكيانة، فلم يجد الروم قرطاجة لا حامية لا طاقة لها بمدافعتهم ، فاحتلوا المدينة ، و عاملوا من كان بها من المسلمين معاملة قاسية (76هـ/695م) ، وهكذا كانت مقاومة الكاهنة لحسان قد أفادت

الروم . إذ مكنتهم من العودة إلى قرطاجة و استرجاع سلطتهم على معظم مناطق افريقية الشمالية.

وعندئذ، أدرك المسلمون أن فتح افريقية كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالصراع الكبير القائم بينها وبين الإمبراطورية البيزنطية، وأن لا راحة لهم، سواء في برقة أم في افريقية أو غيرها من الأقطار المفتوحة، إلا بالتغلب على الروم في البحر، مثلما تغلبوا عليهم في البر، فأمر عبد الملك بن مروان بتدعيم الأسطول الإسلامي، وعهد إليه بالتصدي للأسطول البيزنطي، ثم الحركة الحاسمة بين الأسطولين، وكان للنصر للمسلمين، فبسطوا نفوذهم على البحر الأبيض المتوسط.

وكذلك أمر عبد الملك بإرسال المساعدات إلى حسان، الذي كان مستقرا ببرقة استكمل هذا الأخير عدته، أعاد الكرة نحو افريقية، وكانت الأوضاع قد لقيت تغيير كبيرا، لصالح المسلمين.

بذلك أن الكاهنة كانت قد أمرت أتباعها بإحراق الغابات و إفساد المزارع و تخريب القرى في نواحي افريقية الجنوبية الخاضعة لسلطتها، ظنا منها أن ذلك من شأنه أن يثبت المسلمين و يجعل حدا لرغبتهم في الاستلاء على افريقية. وكانت تلك الأراضي كثيرة الغابات غنية بحبوبها وأشجار الزيتون وغير ذلك. ولا شك أن سياسة تخريب الزراعة هذه بعثت الرعب والهلع في نفوس الأهالي من البرانس والأفارقة وغيرهم. وجعلتهم ينظرون إلى المسلمين نظرة جديدة ويرغبون في قدومهم لإنقاذ البلاد من الدمار والخراب.

وهكذا، كان استقبال أهالي افريقية الجنوبية لحسان وجنده يختلف تماما عن ذي فأطاعه أهل قابس من الأفارقة وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الجند الإسلامي . كما أطاعته قفصة وبلاد الجريد، و دخلت في حمايته. ثم قصد إلى قرطاجة وحاصرها حصارا شديدا، وعندما أراد المسلمون اقتحامها، فاوضهم الروم في تسليم المدينة، ووافقوا على ذلك، ولكنهم غاروها

ليلا، حاملين أموالهم ونفائسهم. ولما دخلها المسلمون، لم يجدوا فيها إلا قليلا من سكانها الفقراء والعجزة (سنة 78هـ/ 697م) . فأمر حسان بتخريب المدينة لئلا يعود إليها الروم، ووجه عنايته إلى توسيع مدينة تونس وأنشأ بها دار صناعة لبناء السفن.

ثم تابع حسان نشاطه، فتوجه إلى المناطق التي عاث فيها أتباع الكاهنة فسادا، ففتحها وكانت الكاهنة قد ضعف شأنها و انفض الناس من حولها، فألحق بها هزائم كبرى، ولقيت حتفها أخيرا في جبال أوراس (أواخر سنة 81هـ/ 700- 82 هـ/ 701م) . وكان لأعمالها التخريبية، التي دامت خمس سنوات، نتائج وخيمة في المجال الاقتصادي، إذ أنها جعلت من تلك المناطق الخضراء أراضي جرداء لا ينبت فيها شجر، ولا تنتج شيئا.

وبهذا تم فتح معظم مناطق افريقية، بصفة نهائية، و انتهت المقاومة التي تعرض لها الفتح الإسلامي في هذه البلاد.

واستقر حسان بعد ذلك بالقيروان، فبذل جهودا كبرى لتنظيم شؤون البلاد، وأقام الدرارين، وضرب السكة، وفرض الخراج على أهل الذمة ، فانتظمت الأمور، وانتشر الأمن بعد أن كانت الفوضى ضاربة أطنابها في كل مكان.

وفي أواخر سنة 85هـ/ 704م، عزل حسان، فعاد إلى دمشق ونصب مكانه موسى بن نصير.

ب- موسى بن نصير:

كان لحسان بن النعمان الفضل في تحقيق فتح افريقية، وإرساء قواعدها الإدارية والاقتصادية و بعث الطمأنينة بين السكان.

وقد اقتنع الأهالي، من مختلف الفئات الاجتماعية، بضرورة احترام النظام الجديد لما تعهد به من حماية أهل الذمة، وضمان كرامة الإنسان، وإقامة العدل، وإقرار المساواة في

الحقوق والواجبات بين المسلمين من مختلف الأجناس. وكان حسان قد سوى بين العرب و البربر في الجند يساهمون أيضا في فتح المغرب.

وقد ترتب عن فتح افريقية نتائج هامة جدا في مختلف المجالات ففي المجال السياسي فقد الروم قاعدة هامة من قواعدهم في حوض البحر الأبيض المتوسط، ثم أن انهيار سلطة الروم بافريقية ترك فراغا سياسيا فتح الباب لكل ما كان ساكنا من عداوة وأحقاد قديمة بين مختلف الفئات وقد ذكرت المصادر التاريخية أن الخلاف انتشر بين أهالي افريقية آنذاك.

يبدو أن جانبا كبيرا من هذا الصراع كان يدور حول الأراضي الخصبة التي سكانها العجم منذ عهد الرومان، بعد أن طردوا منها الأهالي الأصليين. والظاهر أن حياة العجم أصبحت مهددة في بوادي افريقية، و أنهم اضطروا إلى الالتجاء في الحصون فقد أشار ابن خلدون أن موسى بن نصير أمر بنقل العجم من الأقاصي إلى الداني لكن هذا الإجراء نتيجة لما تعرض له كبار الملاك، من هؤلاء العجم، من خطر هجوم قوات على مزارعهم ونهبهم امتلاكهم لها. كما تشير كثير من المصادر إلى اعتناق بعض قبائل البربر للإسلام، منذ أول الفتح، وانضمامها إلى الجيش الإسلامي. والغالب على أن تلك القبائل نالت حظا وافرا من المزارع التي تركها العجم. أضف إلى ذلك أن قبائل أخرى نزعت إلى الغرب فرارا من المسلمين، مما جعل التوزيع السكاني يتغير بصورة المحسوسة في هذه الفترة، وهكذا ، فإن الفتح الإسلامي لافريقية أحدث تحولات هامة في التاريخ السكاني بالمغرب، وسبب تحركات مختلفة لدى العديد من الفئات، مما أنتج شيئا من الاضطراب في كثير من المناطق.

لما قدم موسى بن نصير إلى افريقية كانت المقاومة قد انتهت في هذه المنطقة. وكانت الأوضاع الاجتماعية قد عرفت تحولا كبيرا، إذ أن معظم قبائل البربر لم تتخذ موقفا عدائيا ضد المسلمين، فصالحهم بعضها، و أسلم البعض الآخر.

وواصل موسى بن نصير نشاط الفتح في اتجاه المغرب الأوسط، فلم يتعرض لأية مقاومة بن صالحه أهل المدن، راغبين في مسالمته وحمايته. كما أن قبائل البدو قدمت له طاعتها الكثير منهم، وخاصة من كانوا على دين الوثنية، فأخذ منهم الرهائن وضمهم إلى الجند، ثم فتح موسى بن نصير المغرب الأقصى، بنفس الطريقة، و استولى على فتحته ، عاصمة المنطقة، وترك فيها حامية قوية، تشمل ما اجتمع لديه من رهائن البربر، ثم عد إلى افريقية.

هذا وقد أفاضت المصادر التاريخية في ذكر السبي و وفرة الغنائم التي عاد بها موسى بن نصير، و بالغت في تقدير عددها. ولا شك أن ذلك الغلو في التقدير راجع إلى ما سبق من ميل الرواة إلى حشو أحاديثهم بالغرائب و الأخبار المثيرة للإعجاب.

لم تأتي سنة 92هـ/ 711م، حتى تم فتح المغربين الأوسط والأقصى، شرع المسلمون في فتح الأندلس، فساهم البربر مساهمة كبرى في ذلك.

أهم المصادر والمراجع باللغة العربية

1-ابن أبي دينار، **المؤنس في أخبار إفريقيا و المغرب**، تونس ، 1967

2- ابن أبي زرع الفاسي، **كتاب الأنيس المغرب بروض القرطاس**، فاس، 1973

3- ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار الكتاب العربي، 1387/ 1909

4- ابن حماد، **أخبار ملوك بني عبيد وسرتيهم** ، الجزائر 1927

5- ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض**، ترجمة..... باريس 1965

6- ابن خلدون ، **كتاب العبر**، دار الكتاب اللبناني، 1939

7- ابن خلكان،**وفيات الاعبان وأبناء الزمان**، القاهرة، 1948

8- ابن عذارى، **البيان المغرب في أخبار المغرب**، مكتبة صادر، بيروت 1950

9- البكرى، **كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب**، باريس 1965

10- القاضي نعمان، **كتاب افتتاح الدعوة**، تونس 1975

11- لقبال موسى، **كتامه**

12- مرمول، **السجاسة الداخلية**

13- النوبرى، **نهاية الأرب** . أعني بنشر منتخبات منها.